الكتمان في شعر العباس بن الأحنف

باعتباره نزعةً مثالية

إعداد

وفاء بنت حسين بن سعيد القحطاني

معيدة بقسم اللغة العربية كلية التربية للبنات بالمزاحمية جامعة شقراء

بالمملكة العربية السعودية

الملخص:

تكشف هذه الدراسةُ عن ظاهرة من ظواهر النزعة المثالية في شعر العباس بن الأحنف، ويُقصد بوجهة النظر المثالية هنا إظهارُ ملامح خُلُق الكتمان -الذي تبين من خلال الدراسة ظهوره بوضوح في شعر العباس- وفق ما تقرّر عند أعلام المثالية والمتأثرين بها من فلاسفة وأدباء ونقاد، متّبعة في ذلك المنهج الوصفي الذي يقوم بتتبّع مواطن الظاهرة وتصنيفها ووصفها وتحليلها واستخلاص النتائج منها.

والكتمان يفرض تَرْكَ الإضرار بالآخرين أو اقترافِ ما يسوؤهم أو يمسّ ذِكْرَهُم بين الناس، وقد ظهرت صُوَرُ الكتمان في شعر العباس متفقةً مع هذا، فإنْ لم يكن يملك إخفاء أمر الهوى في الجملة؛ لتعذِّر ذلك بعد أن تمكّن من قلبه وبَدَا على ظاهره، فإنّه اجتهد في إخفاء اسمها وكَابَدَ القلق والحرص والحرمان وكلَّ ما يترتّب على تحقيق هذا الكتمان، وقد أفلح في ذلك، فلم يُعرف اسمُها ولا هويّتها على وجه الجزم إلى هذا الزمان.

واقتضت طبيعة البحث تصنيف مادته وفق تمثلات الكتمان الكثيرة في شعر العباس، وقد تبيّن أنّه -أي خُلُق الكتمان- لم يأت لغاية تعليمية، بل هو مكوِّنٌ من المكوّنات الجمالية للفن الشعري عند العباس، وهذا ما عليه أكثر الفلاسفة المثاليين، ويُستثنى منهم كروتشه ومن تابعه.

الكلمات الدلالية للبحث: المثالية، الكتمان، شعر، العباس، الأحنف

مدخل:

تعدّ المثالية في معناها المجرّد منزعًا إنسانيًا يكاد يكون جليّ الملامح للأذهان، بما تحمله من ترفّع عن الدنايا، وتمثّلٍ للقيم العُليا، والتزامٍ بالمبادئ والقيم الخلقية الرفيعة، واحتفالٍ بعالم الروح النورانيّ البهيّ، وتجافٍ عن الرغبات الجسدية.

أمّا المثالية التي تريدها هذه الدراسة، وتتلمّس مظاهرها في المدوّنة الشعريّة المختارة، فهي مثالية تستمدّ أصولها من المعنى اللغوي والعُرفي للمثالية من جهة، ومن جهة أخرى تستند إلى الإرث الفلسفيّ الكبير منذ زمن المثاليّ الأول الفيلسوف الإغريقي المشهور أفلاطون (ت ٣٤٧ ق.م) حتى العصر الحديث، وهو إرثٌ جعل للمثالية مدارس متعددة يوافق بعضها بعضًا في جوانب، ويختلف في أخرى، بل قد يعارض بعضها بعضًا فيقوم اللاحق على هدم السابق.

وما من ريب في أنّ للمثالية -كغيرها من المدارس الفلسفية- تجلياتٍ ظاهرة في الفن بعامة، وفي الشعر بخاصة، على مدى العصور، وهي تجلّياتٌ تتمثّل في الشكل كما تتبدّى في المضمون، بغض النظر عن القصديّة فيها؛ كون المثالية تستقي كثيرًا من أصولها من المفاهيم الإنسانية في الجملة.

وصُوَرُ المثالية في شعر العباس تتشكّل في المظهر الانفعاليّ الذي قوامه العاطفة والميول النفسية بعامّة، وفي المظهر الأخلاقي بما يتفق مع النظريّة المثالية التي تُعلي من شأن الفضيلة والخُلُق، وفي المظهر الفنّيّ الشكليّ من التزامِ مَسْلَكِ الأقدمين في البناء الفنّي، والاحتفالِ بالخيال بما فيه من عناصر متصلة بالصورة الشعرية من تشبيه واستعارة ونحو ذلك، وكذلك اختيار الألفاظ والتراكيب بما يُسهم في صناعة المعنى المقصود بفاعليّة، ثم انتقاء الموسيقا الداخلية والخارجية بما يؤدي حركة فاعلةً في المعنى. ويركّز هذا البحث على نزعةٍ خلقيةٍ ذات بُعدٍ مثالي هي نزعة الكتمان؛ باعتبارها أظهر تشكّلات المثالية الخلقية في شعر العبّاس.

تمثّلات نزعة الكتمان في شعر العباس:

عُدّ كتمانُ السرِّ فضيلةً أخلاقية لما فيه من رعايةٍ لمصالح صاحب السر، وحمايته من الضرر الواقع عليه إن أُفْشِيَ سرّه، وفي باب الحب يتأكد هذا المعنى لاتصاله بالأعراض، ومصادمته للأعراف السائدة في الناس، كون العرف يقضي بأن الحب خارج إطاره المشروع (الزواج) قد يفضي إلى الوقوع في الرذيلة، وهو ما يمسّ شرف الأهل ومكانتهم، وفي هذا إضرار بالغٌ يلحق بالطرفين، فضلا عن الأسباب الأخرى التي قد تجعل من الكتمان فضيلة في هذا الباب، ما لم يكن تركه باختيار طَرَفَيْ المحبة معًا.

وعلى هذا فإنّ كتمان السرّ في الجملة من الخصال الخُلقية التي تقتضيها النزعة المثالية، وكتمانه في باب الحبّ مُتَفَرِّعٌ عن هذا المنبع وهو المقصود في هذا الدرس.

وفي الفلسفة المثالية التي تعنى بالفضائل الخلقية إشاراتٌ إلى أن الإضرار ليس من خلق المحب الفاضل، فأفلاطون في (المأدبة) يجعل من الحب سببًا لتحقيق لين الطباع، والبعد عن الغلظة والفظاظة، لأنّ المحبَّ جوادٌ معطاء، عاجز عن الوقوع في الخبائث والإضرار؛ "فالحب لا يؤذي أحدًا" كما يقول.(١)

ولا يعني أن اختيار المُحِبِّ للكتمان -باعتباره فضيلة خلقية- حملٌ على كُره، فليس في الحب قَهْرٌ كما يقرر أفلاطون، بل هو "ينقذ من الخوف"(٢).

أما عند المثاليين المحدثين فيرى هيغل (ت ١٨٣١م) أنّ القانون أو الحقيقة تقف على جهة، فيما تقف النوازع والأهواء والعواطف على جهة أخرى، وبينهما تكون القيم الأخلاقية حائلا دون خروج المرء على القانون وولوغه في وحل الأهواء المنفلتة، وهذه القيم هي التي تحمل المرء على تقدير الواجب وكبت الأنانية(٣)، ومما يُحمل على الأنانية التشهير بالآخرين وترك رعاية مصالحهم وتجنب ما قد يلحق الضرر بهم.

وقد يتضمّن نشرُ أخبار الحب وما يتصل به -من قبل أحد طرفيه- معنى الحريةِ وتحقيقِ الغايات الذاتية الخاصة، دون اعتبارٍ للضرورات المحيطة، من أعراف عامة، وظروفٍ متصلة بالطرف الآخر خاصة، غير أنّ هذه الحرية وفق ما يراه هيغل(٤) لابد أن تبقى أسيرةً لقوانين معينة تفرضها وجهة النظر الأخلاقية، ومقتضى هذا التصور الهيغلي -إذا ما نُقل إلى ميدان العلاقات العاطفية- أن يُطوى من علاقة الحب ما يتعارض مع سلامةِ كل طرفٍ مما قد يلحقه من أذى قولي أو فعلي.

وفي التراث العربي الإسلامي بفلسفته وأدبه إشارات جمة إلى أهمية كتمان شأن الحب عن الناس، فابن داود صاحب الزهرة (ت ٢٩٧هـ) يرى وجوب كتمان أمر الحب عن غير المحبوب، ويعدّ إظهاره خطأ من وجوه أهمها تعرّض المحبوب للقالات، وتعرض المحب للسعاية ووشاية

(١) انظر: أفلاطون، المحاورات الكاملة، ١١٥/٤.

(٢) نفسه، ١١٥/٤.

(٣) انظر: هيغل، المدخل إلى علم الجمال، ص ٥٥.

(٤) انظر: هيغل، المدخل إلى علم الجمال، ص ٥٧.

الرقيب ونحو ذلك[٥]، بل إنه في باب آخر[٦] يرى ترك وصف المحبوب رعايةً لحق الإلف، وحماية للمُحب من التعرض لأسباب المهالك.

وأما الفيلسوف أبو زيد البلخي (ت ٣٢٢هـ) فقد كان يجعل كتمان السر من مطالب الحكمة، وقد نقل عنه الشهرستاني[٧] (ت ٥٤٨هـ) قوله: "من طلب لسرّه حافظًا أفشاه"[٨]، وفي هذا تأكيد بيّن على حفظ المرء لسرّه وكتمانه عن الآخرين، ويتأكد هذا في باب الحب حيث يترتب الضرر غالبًا على إفشائه.

ويجعل ابنُ حزم (ت ٤٥٦هـ) طيَّ سر الحب من صفات الحب وعوارضه، وهو يرى أن تركه لأجل ألا يوصف المحب بالعشق بين الناس وجهًا غير صحيح، أما تركه لأجل رعاية جانب المحبوب وصيانة عرضه والإبقاء على ودّه فهو من دلائل الوفاء وكرم الطبع.[٩]

وأمّا عن حال أهل الشعر مع الكتمان فلئن كان أمرُ كثيرٍ من العشاق في التاريخ الأدبي، ولاسيما العذريين، مع صواحبهنّ مشهورًا في التاريخ الأدبي، كعنترة وعبلة، وجميل بثينة، وكثير عزة، ومجنون ليلى، وقيس لبنى، وغيرهم، فإنّ العباس قد اشتهر أمره مع فوز التي لم يسجّل التاريخ لها نسبًا ولا خبرًا، إلا ما جاء من طريق شعر العباس وأخباره، وهو نوعٌ من الكتمان استحسنه ابنُ حزم وابن داود، كما تقدم.

وقد جعلت د.ليلى سعد الدين[١٠] للعباس شريعةً سمّتها (شريعة الغرام)، وهي شريعة قائمة على الخضوع والكتمان والوفاء، والكتمان يأخذ صورًا كثيرة في شعر العباس، وكلها تؤول إلى القطع بأنّ أمر إخفاء هذا الحب كان شغلًا أهمّه حقًا كما أهمّ فوزًا، ولذلك كَثُر النص على هذا الشأن في شعره، ومن ذلك:

١ـ النَصُّ صُراحًا على حرصهما على الكتمان، على كل حالٍ من أمرهما:

ولهذا شواهد كثيرة، منها قوله:

- **لأَخْرُجَـــــنَّ مِـــــنَ الدُّنْيـــــا بـــينَ الجَـوَانِحِ لـــمْ يَشْـعُرْ بِـــهِ أحَـــدُ[١١]**
- **سِـــرِّي وَسِـــرُّكِ لـــمْ يَعْلَـــمْ بِـــهِ أحَـــدٌ إلّا الإلـــــهُ وإلّا أنـــــتِ ثـــــمّ أنَـــــا[١٢]**
- **وأكْـــتُمُ سِـــرَّها مَـــا عِشْـــتُ حتّـــى أمـــــوتَ ولا أخـــــونُ ولا أحُـــــولُ[١٣]**

(٥) انظر: ابن داود، الزهرة، ص ٤٠٩.

(٦) انظر: نفسه، ص ١٢٦.

(٧) أبو الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ)، عالم أصولي فقيه متكلم، له مصنفات كثيرة في التفسير والفقه وعلم الكلام والفلسفة وغيرها، ووردت ترجمته في عدد من كتب التراجم كسير أعلام النبلاء للذهبي، ووفيات الأعيان لابن خلكان وغيرهما.

(٨) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم، الملل والنحل، ت: أحمد فهمي محمد، مطبعة حجازي، القاهرة، د.ط، ١٩٤٨م، ٢٥/١.

(٩) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، ص ٨٣ وما بعدها.

(١٠) انظر: سعد الدين، العباس بن الأحنف: دراسة مقارنة، ص ١١٨.

(١١) ابن الأحنف، ديوان، ص ٨٤.

(١٢) نفسه، ص ٢٧٠.

(١٣) نفسه، ص ٢١١.

واللافت في الشاهدَيْن الأول والثاني استعمالُهُ كلمة (أحد) التي تفيد العموم، فيستغرقُ بها كلَّ الناس من أقارب وأباعد، فلا استثناءَ لأحدٍ كائنًا مَنْ كان، ولعل هذا ما يُفسِّر الجدل حول هوية محبوبته إلى هذا الزمان، فقد ذكرت محققةُ ديوان العباس د.عاتكة الخزرجي أنّ فوزًا هي عليّة ابنة الخليفة المهدي، وأخت هارون الرشيد،(١٤) فيما يرى د.شوقي ضيف أن فوزًا جاريةٌ عند محمد بن المنصور صاحب ديوان الخراج على عهد الرشيد(١٥)، أمّا د.ليلى سعد الدين فقد قدّرت أنها حجازية هاشمية من أسرة نبيلة(١٦)، وظل هذا الخلاف قائمًا بلا دليل قاطع يؤيد أحد الآراء.

كما أن الإلحاح على معنى الكتمان يتجلى في أكثر من موضع في هذه الشواهد: ففي الشاهد الأول يستعمل لام القسم ونون التوكيد الثقيلة في (لأخرجنّ)، وفي الشاهد الثالث يقطع بكتمان سرّها أبدًا بجُمَلٍ متعددة: (ما عشتُ) و(حتى أموت) و(لا أخون) و(لا أحولُ)، وكلها مفيدةٌ نتيجةً واحدةً هي بقاؤه على عهد الكتمان دون تحوّل عنه حتى تنقضي حياته.

وفي موضع آخر ينصّ على أنّه يطوي هذا الهوى حتى عن أخصّ أصحابه، ولو كان هذا الصاحبُ مأمونًا على الأسرار، لا تُخشى غدرته:

تَوَافَــقَ مَعْشُــوقانِ مِــنْ غَيْــرِ مَوْعِــدٍ وَغَيِّــبَ عَــنْ نَجْوَاهُمــا كُــلُّ كَاشِــحِ
وَكَلّــتْ جُفُــونُ العَــيْنِ عَــنْ حَمْــلِ مَائِهــا فَمَــا مَلَكَــتْ فَــيْضَ الــدُّمُوعِ السَّــوَافِحِ
وإنّــي لأطْــوِي السِــرَّ عَــنْ كُــلِّ صــاحِبٍ وإنْ كــانَ لِلأسْــرارِ عَــدْلَ الجَــوَانِح(١٧)

والنصّ على الكتمان يأتي في مواضع أخرى باعتباره همًّا مشتركًا بينهما، فيقول:

كَتَمْــتُ ومَــنْ أهــوى هَوَانــا فلــمْ نَــبُحْ وقــدْ كانــت الأسْــرارُ بــاللّمْحِ تَظْهَــرُ
فَــنَحْنُ كِلانــا مُقْصَــدٌ فــي فُــؤادِهِ مِــنَ الشّــوقِ نــارٌ حَرُّهــا يَتَسَــعَّرُ
فَــلا أنَــا أبْــدِي مَــا أجِــنُّ ولا الــذي بِــهِ مِثْــلُ مَــا بِــي لِلّمَخَافــةِ يَــذْكُرُ
فَيَــا عَجَبًــا مِنِّــي ومِنْهَــا وصَــبْرِنا علــى مَــا نُلاقِــي كيْــفَ نَصْــبُو ونَصْــبِرُ(١٨)

فقد كان الكتمان في مواقف يعسر فيها، إذْ يَعْسُرُ الصّبرُ في موطن التباعد عن الأحبة، ولكنّهما أُكْرها على هذا الأمر، تنائيًا عمّا يُلحِق ما لا يَجْمُلُ بهما.

وقد يُبالغ في تصوير حرصه على هذا الكتمان، فيقول:

ولــوْ أنّ خَلْقًــا كــاتَمَ الحُــبَّ قَلْبُــهُ لَمِــتُّ ولــمْ يَعْلَــمْ بِحُــبِّكُمُ قَلْبِــي(١٩)

(١٤) الخزرجي، الشخصية التاريخية لفوز صاحبة العباس بن الأحنف، ص ١٣ وما بعدها.

(١٥) ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول، ص ٣٧٧

(١٦) سعد الدين، العباس بن الأحنف: دراسة مقارنة، ص ٥

(١٧) ابن الأحنف، ديوان، ص ٧٥.

(١٨) نفسه، ص ١٣٨.

(١٩) ابن الأحنف، ديوان، ص ٣٦.

فلو كان بوسعه إخفاء هذا الحب عن قلبه الذي هو محضن حُبّه إياها ومنبعُهُ ومسكنه لفعل، ولظلّ على هذه الحال من المكاتمة حتى تفيض روحه!

وقد حكى الراغب في (محاضرات الأدباء)[٢٠] أن العباس أخذ هذا المعنى من قول جميل:

لَوَ انَّ امْرأ أَخْفَى الهَوَى عَنْ ضَمِيرِهِ لَمِتُّ ولَمْ يَعْلَمْ بِذاكَ ضَمِيري[٢١]

على أنّ جميلا قد اشتهر أمره مع بثينةَ المعلومِ اسمُها ورَسْمُها وأهلُها ومكانها، أما العباس فلم يُعلم على وجه الجزم اسمُ محبوبته ولا هويتها.

وقد يستعمل العباس في عبارته عن كتمانه ألفاظًا تدلّ على التغييب التام لهذا السرّ، من نحو لفظ (الدفن) الذي ألحّ عليه في أكثر من موضع:

- **أُمِرْتُ بِكِتْمانِ الذي لَوْ أشَعْتُهُ فأظْهَرْتُهُ لَمْ يَعْلَمِ النّاسُ مَنْ أعْنِي**

  ولكنْ سأُخْفِي ما كَتَمْتُ تَجَلّدًا ولَيْسَ لِأسْرارِ المُحِبِّينَ كَالدَّفْنِ[٢٢]

- **حدِّثِيني عَمَّنْ أَشَاعَ حَدِيثًا أنا فيهِ وأنتِ مُشْتَرِكانِ**

  فَلَعَمْرِي إنِّي لَأَدْفِنُ أسْرَا م رَكِ عندي في حُفْرَةِ الكِتْمانِ[٢٣]

- **ولقَدْ دَفَنْتُ هَوَاكُمُ مِنِّي بِمَقْبَرَةِ القُلُوبِ**

  وكَتَمْتُ حُبَّكِ جَاهِدًا وَرَعَيْتُ غَيْبَكِ بِالمَغِيبِ

  وَرَضِيتُ مِنْكِ بِدونِ ما يَرْضَى المُحِبُّ مِنَ الحَبيبِ[٢٤]

والجامع بين الشواهد الثلاثة استعمال لفظ (الدفن): (وليس لأسرار المحبين كالدفن)، (فلعمري إني لأدفن أسرارك)، (ولقد دفنت هواكم)، بل إنه قد يزيد لفظ (الحفرة-المقبرة): (في حفرة الكتمان)، (بمقبرة القلوب) ويدلّ بهما على موضع الدفن، وهذا من قبيل الإلحاح على معنى التغييب للسرّ وإخفائه عن الآخرين، مع أنّ الدفن في العُرف لا يكون إلا في حفرة أو قبر، فالنص عليهما يضيف إلى المعنى قوة مقصودةً، وإن كان انتظامه في سياق الحب برقّته قد لا تستسيغه النفس.

ولعلّ ما يحمله على مثل هذا الإلحاح كون الحرص على الكتمان هَمًّا مُشْتَرَكًا، كما تقدم، ولذلك يظهر في موضعٍ آخر مُدافعًا عن ستره لسرّهما في موقفِ غضبٍ اتهمتْه فيه فوز بإذاعة أمرهما:

وماذا يَضُرُّكَ مِنْ شُهْرَتي إذا كانَ سِرُّكَ لا يُشْهَرُ

(٢٠) انظر: الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١١٤/٢.

(٢١) جميل بثينة، ديوان، ص ١١٣.

(٢٢) ابن الأحنف، ديوان، ص ٢٧٤.

(٢٣) نفسه، ص ٢٦٣.

(٢٤) نفسه، ص ٤٥.

أَمِنِّـــي تَخَـــافُ انْتِشَـــارَ الحَـــدِيثِ م وحَظَـــيَ مِـــنْ صَـــوْنِهِ أَوْفَـــرُ

إِذَا كُنْـــتَ تَحْـــذَرُني فـــي الرِّضـــا وتَـــزْعُمُ أَنِّـــيَ لا أَسْـــتُرُ

فَمَـــا لَـــكَ تَهْجُرُنـــي ظَالِمًـــا وتُغْضِـــبُنِي ثَـــمَّ لا تَحْـــذَرُ(٢٥)

واللافت استعماله طريقة البرهنة والإثبات المنطقي، فإن كانت تدعي خوفها من إذاعته لسرهما في حال الرضا فكيف تجرؤ على هجره؟ كون الدافع لنشر السر في الغضب أقوى منه في حال الرضا! على أنّ الحالين يستويان عند العباس؛ فهو حافظٌ للأسرار على كل حال من أمرهما.

٢- ذِكْرُ أسبابِ الكتمان ودواعيه:

وهي أسبابٌ كثيرة، والغالب ألا يأتي كلٌ منها منفردًا في موقفٍ ما، بل إن كل موقف يتضمّن العلة الأصل وهي إخفاء حقيقة المحبوبة صيانةً لها عن القالة والضرر، وقد يُضمّ إليها غيرُها بحسب ما يقتضيه الموقف، فمن ذلك الهيبة التي تقع في قلب المُحِبِّ تجاه محبوبه، وقد عرض لها ابنُ حزم في (طوق الحمامة) وعَدَّها من أمارات الحب التي تظهر على المُحِبِّ "قبل اسْتعار نار الحُبّ وتأجُّجِ حريقه وتوقُّد شُعَلِهِ واستطارةِ لَهَبِهِ"(٢٦)، فإذا ما تمكّن في الفؤاد ذهبت هذه الهيبة، وتعوّد كلّ منهما على صاحبه.

وفي هذا المعنى يقول العباس:

إذا كـــانَ مَـــنْ يَهْـــوَى يُكـــاتِمُ حُبَّـــهُ لِهَيْبَـــةِ مَـــنْ يَهْـــواهُ مـــاتَ مِـــنَ الغَـــمِّ

سأَضْـــمِرُ صَـــبْري عَنْـــكِ لا عـــن تَجَلّـــدٍ ولكنّنِـــي أطْـــوِي ضَـــمِيري علـــى رَغْـــمِ(٢٧)

ولعل هذا كان في أوّل الأمر، وقبل أن يعزم أمره على مكاشفتها بحبه لها:

هـــذا كتـــابٌ بِـــدَمْعِ عَيْنِـــي أمْـــلاهُ قلبـــي علـــى بَنـــانِي

إلـــى حَبيـــبٍ كَنَيْـــتُ عَنْـــهُ أجَـــلَّ ذِكْـــرَ اسْـــمِهِ لِسَـــانِي

قـــد كنـــتُ أطْـــوِي هَـــوَاهُ عِنْـــدِي مُـــذْ كنـــتُ فـــي ســـالِفِ الزّمـــانِ

فَبُحْـــتُ إذْ طـــالَ بـــي بَلائِـــي ولـــمْ يَكُـــنْ لـــي بِـــهِ يَـــدَانِ(٢٨)

والغالب أنّ هذا الكتاب الذي بعث به إليها كان فاتحة الصلة بينهما، والبوح المراد في الأبيات يُقصد به -على ما يغلب على الظنّ- البوحُ إليها وحدها دون سواها بما يحمل لها من محبة كان يكاتمها إياها.

ثم إنّه بعد ذلك عُرف بين الناس بما يُجنّ من الهوى، من غير أن يُفصح عن اسمها:

(٢٥) ابن الأحنف، ديوان، ص ١٤٦.

(٢٦) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ٤٤.

(٢٧) ابن الأحنف، ديوان، ص ٢٤٦.

(٢٨) نفسه، ص ٢٧٢.

فَـــإنَّ حُبَّـــكِ قَرْبـــانٌ ونافِلَـــةَ وَحُـــبَّ غَيْـــرِكِ ذَنْـــبٌ غَيْـــرُ مَغْفُـــورِ

قَـالُوا كَتَمْـتَ اسْـمَهَا فانْعَـتْ مَحَاسِـنَهَا وذاكَ خَطْـــبٌ جَلِيـــلٌ غَيْـــرُ مَحْقُـــورِ

وهَـلْ يَقُـومُ بِوَصْـفِ الشّـمْسِ وَاصِـفُها والشَّمْسُ مِـنْ جَـوْهَرٍ عَـالٍ ومِـنْ نُـورِ(٢٩)

وهو هنا يستعمل أسلوب البرهنة -الذي يَرِدُ في ديوانه كثيرًا- في تعليل إخفائه لاسمها، فيجعل إجابة مطلب السائلين مُتعذِّرًا باعتبار طبيعة المسؤول عنها التي تستحيل على البيان، أي أنها مما تُدركه المعرفة ولا تحيط به الصفة، وهذه علة منطقية لعلها تخفي وراءها مقصودًا أبعد، وذلك من جهة المحبوبة نفسها، ومكانها من أهلها وما يتصل بالمحظور الاجتماعي الذي قد يفضي ارتكابه إلى الإضرار الدائم.

ويظهر من تَتَبُّع أشعار الديوان أنّ أكثر سببٍ يخشاه العباس -بعد أن تمكّن الحب من قلبه وقلب فوز- هو عيون الرقباء، وترصّد الأعداء، ولذلك يتردّد ذِكْرُ الحذر والخوف منهم كثيرًا في ديوانه، ويقدمه سببًا لحرصه على كتمان الهوى، وكتمان حقيقة فوز:

يَطْـوِي الصَّـبابَةَ مِنْـكِ وهـيَ مَصُـونَةٌ بَـــيْنَ الجَـــوانِحِ كُـــلَّ يـــومٍ تُسْـــتَرُ

لا لَـــوْمَ أنْ يَقِـــفَ الحبيـــبُ بِمَنْهَـــلٍ يَرْجـو السـبيلَ إلـى الـوُرودِ ويَحْـذَرُ(٣٠)

وفي أكثر مواضع التعليل لكتمانه ينصّ على العيون التي تراقبه:

كَفَـــى حَزَنًـــا أنِّـــي أرَى مَـــنْ أُحِبُّـــهُ قريبًـــا ولا أشـــكو إليـــه فَـــيَعْلَمُ

فـــإنْ بُحْـــتُ نـــالَتْنِي عُيـــونٌ كثيـــرةٌ وأضـعُفُ عَـنْ كِتْمَانِـهِ حِـينَ أكْـتُمُ(٣١)

فهو حتى مع حال الضعف الذي يعتريه من الكتمان لَيترك خيار البوح اتقاءً لتلك العيون التي تترصّده، وقد نعتهم في مواضع بـ (الكاشحين) و(المخاتلين):

وإنِّـــي لَأَرْعَـــى حَـــقَّ فَـــوْزٍ وأَتَّقِـــي عليهـــا عُيـــونَ الكاشِـــحِينَ ذَوِي الخَتْـــلِ

وإنِّـــي وإيَّاهـــا كَمَـــا شَـــفَنَا الهَـــوَى لَأَهْـــلُ حِفَـــاظٍ لا يُـــدَنّسُ بِالْجَهْـــلِ(٣٢)

وفي استعماله لفظة (أتّقي) دِقّةٌ مستحسنةٌ في هذا الموضع، فلم يختر مرادفاتٍ لها نحو (أُبْعِد)، (أحمي)، (أصون)، بل تخيّر لفظة الوقاية بما لها من ظلال معنوية مناسبةٍ تزيد على ما في مرادفاتها، فمعنى الوقاية لا يقتضي محض إبعاد محبوبته عن عيون الرقباء فحسب، ولاسيّما أنّ هذا متعذِّرٌ كون هؤلاء الرقباء هم الذين يُتابعونهما ويترصّدون لهما لِتَصَيُّدِ ما يتوقعونه منهما،

(٢٩) نفسه، ص ١٤٨.

(٣٠) ابن الأحنف، ديوان، ص ١٢٧.

(٣١) نفسه، ص ٢٣٨.

(٣٢) نفسه، ص ٢١٠.

وإنّما يدلّ معنى الوقاية على "دفع شيءٍ عن شيءٍ بغيره"[٣٣]، فدفع عيون الكاشحين في هذا المقام إنّما يكون بترك ما من شأنه استجلاب الشك وإثارة الريبة.

وقد تقدّم أن الحرص على الكتمان همٌّ مشترك بينهما، فهي مثله تخشى هؤلاء الأعداء المتربصين:

ومَـــا صَـــبْرُنا ألّا نَبُـــوحَ فَنَشْـــتَكِي سَـــرائرَ مَـــا يُخْفِـــي الضَّـــمِيرُ ويُضْـــمِرُ
مَـــلَالًا، ولكـــنْ نَتَّقـــي قَـــوْلَ كَاشِـــحٍ يُبَلِّـــغُ عَنّـــا مَـــا نَقُـــولُ ويُظْهِـــرُ
فَنَكْـــتُمُ مَـــا يُخْفِـــي الضَّـــميرُ تَحَفّظَـــا وخَيْـرُ الهَـوَى مَـا كـانَ يَخْفـى ويُسْـتَرُ[٣٤]

٣- الطرائق التي سلكها العباس لتحقيق معنى الكتمان:

وهي كثيرة؛ فسُلوكه كله مع فوز قائم على الكتمان التام، فمن ذلك: كتمان اسمها، والكناية عنها بأسماء أخرى كثيرة.

والمتتبّع لأشعار العباس يلحظ أنّه ينصّ مرارًا على كتمانه لاسمها، ويختار أسماء أخرى لها للدلالة عليها، فمن ذلك قوله:

بَكَـــى وكَنَـــى عَمَّـــنْ يُحِـــبُّ ولـــمْ يَـــبُحْ بِـــأكْثَرَ مِـــنْ هـــذا الـــذي هُـــوَ قَائِلُـــهْ
وإنَّ أحَـــقَّ النّـــاسِ أنْ يَكْثُـــرَ البُكـــا عَلَيْـــهِ قَتِيـــلٌ لَـــيْسَ يُعْـــرَفُ قَاتِلُـــهْ
يَعُـــوذُ مِـــنَ الهِجْـــرانِ أنْ يَكْتَـــوِي بِـــهِ فَلَـــمْ أرَ إلّا المَـــوْتَ شَـــيْئًا يُعَادِلُـــهْ[٣٥]

فهو يستعمل طريق الكناية، ويعدل عن التصريح باسمها، حتى لكأنّ فَعْلَتَها به -بعد كل هذا الكتمان- مقيّدةٌ ضد مجهول العين، لا يُعرف مَنْ يكون، وإن كانت آثارُ جُرْمِهِ الذي اقترفه باديةً على العباس، والجُرم في هذه الحال مُضاعف الأثر: من جهة ضرر وقوعه هو بذاته، ومن جهة أنّ فاعله لم يُعيَّن، وإنْ كان معلومًا عند الضحية الذي لا يجرؤ على الإخبار عنه!

وأكثر اسم اختاره العباسُ ليكون علمًا على محبوبته هو (فوز)، وقد ورد اسمها في ديوانه قريبًا من ست وستين مرة، ولعل في اصطفائه هذا الاسم تفاؤلًا بالفوز والظفر بها!

وظاهر ما يُرى أنّه جعله العلم الأصل عليها، فهو يرد في جميع السياقات: في الرضا والغضب والعتاب والوصال والفراق وغير ذلك، كما نصّ على أنه اختار لها هذا الاسم من طريق الكناية، وليس هو باسمها الذي اختاره لها أبواها، وعُرفت به في الناس:

كَتَمْـتُ اسْـمَهَا كِتْمـانَ مَـنْ صَـانَ عِرْضَـهُ وَحَـــاذَرَ أنْ يَفْشُـــو قَبِـــيحُ التَسَـــمُّعِ

(٣٣) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١٣١/٦.

(٣٤) ابن الأحنف، ديوان، ص ١٣٨.

(٣٥) نفسه، ص ١٣٨.

فَسَمَّيْتُهَا "فَوْزًا" وَلَوْ بُحْتُ باسْمِها لَسَمَّيْتُ باسْمٍ هَائِلِ الذِكْرِ أَشْنَعِ[٣٦]

فهو يعادل بين كتمانه لاسمها، وصيانة الرجل لعرضه، فيجعلهما بمنزلة واحدة للدلالة على فرط إصراره على الحفاظ على اسمها من الامتهان في مواطن لا يحمدها الناس في العادة.

ثُم إنّه في مواضع يختار لها اسمًا آخر هو (ظلوم)، وقد يُصغِّره فيجعله (ظُلَيْمة)، وقد ورد ذكره في الديوان خمسًا وثلاثين مرة، وهو يأتي بهذا الاسم -في الغالب- في سياق العتاب والهجر ونحوهما، من مثل قوله:

- **أبْكي ظَلُومَ وأبكي ما فُجِعْتُ بِهِ مِنْها، وأبكي على قلبي الذي ذَهَبَا**[٣٧]

أعَتْبًا عَلَيْنا يا ظَلُومُ فَنُعْتِبُ وإنْ كنتُ لَمْ أَحْوِجْكُمُ أنْ تَعَتَّبُوا

- **ظَلُومُ ترى الإحسانَ مِنِّي إساءَةً وَتُذْنِبُ أحيانًا إلينا وتَغْضَبُ**[٣٨]
- **فإنْ كانَ عَيْشِي كُلّهُ مِثْلَ ما أَرَى لَقَدْ طَالَ فيكمْ يا ظَلُومُ عَذَابي**[٣٩]
- **كانتْ ظَلُومُ إذا عَاتَبْتُها اعْتَذَرَتْ فَكُنتُ أَحْبِسُ دَمْعِي حِينَ تَعْتَذِرُ**

فَالْيَوْمَ قَدْ آيَسَتْنِي أنْ أعاتِبَها فاسْتَقْطَرَ اليأسُ دَمْعِي فهْوَ يَعْتَذِرُ[٤٠]

- **وَمَا زِلْتُ في حُبِّي ظُلَيْمَةَ صادِقًا أُهِيمُ بِهَا، مَا فوقَ وَجْدِي بِهَا وَجْدُ**[٤١]
- **هذا كِتَابُ فَتًى لِغَيْبِكِ حَافِظٍ كَلِفٍ بِذِكْرِكِ يَا ظَلَيْمَةَ مُدْنِفِ**[٤٢]

ومن الأسماء التي يدعوها بها وتكررت مرارًا في أشعاره: (سكني)، فقد وردت ثمانيَ مرات، وغالب سياقاتها يظهر فيها هدوؤه النفسي، إما لأن المقام مقام اجتماع أو اقتناع أو تضرع لله ونحو ذلك:

- **قَدْ جَمَّعَ اللهُ لي شَمْلي بِقُرْبِكُمُ مِنْ بعد ما كانَ -يا نَفْسِي الفِدَا- بَدَدَا**

فالحمدلله ذي النّعْماءِ يا سَكَنِي حَمْدًا كثيرًا لِرَبِّي دائمًا أبَدَا[٤٣]

- **لَمَّا أتَانِي كِتابٌ مِنْكِ يَا سَكَنِي جَعَلْتُهُ شَبَهَ التَّعْوِيذِ في عَضُدِي**[٤٤]

ومن الأسماء (ذات الخال)، و(ذلفاء)، وكلاهما من أمارات الجمال، وقد وردت الأولى مرتين في الديوان، والثانية أربع مرات:

---

(٣٦) ابن الأحنف، ديوان، ص ١٦٩.

(٣٧) نفسه، ص ٣٧.

(٣٨) نفسه، ص ٥٨.

(٣٩) نفسه، ص ٢٤.

(٤٠) نفسه، ص ١٣٠.

(٤١) نفسه، ص ٩٨.

(٤٢) نفسه، ص ١٨٦.

(٤٣) ابن الأحنف، ديوان، ص ٩٥.

(٤٤) نفسه، ص ٩٦.

- **ألا لَيْـتَ ذاتَ الخَـالِ تَلْقَـى مِـنَ الهَـوى عَشِـيرَ الـذي أَلْقَـى فَيَلْتَـئِمَ الشَّـعْبُ**

إذَا رَضِـيَتْ لَـمْ يَهْنَنِـي ذلـكَ الرِّضـا لِعِلّمـي بِـهِ أنْ سَـوْفَ يَتْبَعَـهُ العَتْـبُ(٤٥)

- **أَتَحْسَـبُ ذاتَ الخَـالِ راجِيَـةً رَبَّـا وقـدْ قَتَلَـتْ صَـبًّا يُجَـنُّ بِهـا حُبَّـا**(٤٦)
- **لَعَلَّـكِ يَـا ذَلْفَـاءُ إنْ طَـالَ عَهْـدُنا بِكُـمْ قـدْ تَنَاسَـيْتِ المَوَاثِيـقَ والعَهْـدَا**(٤٧)
- **ذَرِي عَنْـكِ يَـا ذَلْفَـاءُ طُـولَ عِتـابِي وَلا تَتْرُكِـي دَاعِيـكِ غَيْـرَ مُجـابِ**(٤٨)

والجامعُ بين هذه السياقات -فيما يبدو- شيءٌ من التعالي يأخذها عليه، يحملها على تكرار العتب والهجر، لذلك أتاها في الوصف من جهة ما يزيد حُسنها حُسنًا وهو الباب الذي قد يكون منه تدلّلها وتعاليها.

وقد ذكر هذا الخال وحُسنه على خدها الأيسر في غير موضع من الديوان، ثم هو يفصح في أنها ليست بذات خال، وإنما ادعى ذلك ليضلل الناس عنها!

أقـولُ بِالخـدِّ خـالٌ حـين أنْعَتُهـا خَـوْفَ الوُشـاةِ، ومـا بالخَـدِّ مِـنْ خـال(٤٩)

وهذا الادعاء (أي القول بأنها ذات خال وليست كذلك على الحقيقة) يحتمل ثلاثة وجوه: أن يكون صحيحًا، ولا يُستبعد ذلك بالنظر إلى حرصه الشديد على التكتم على كل ما يتصل بها، أو أن يكون غير صحيح، وأنها ذاتُ خالٍ حقًا، لكنْ لعله خشي انكشاف أمرها فأراد تضليل مَنْ به شك، وهذا وارد جدًا،كما أنّها قد تكون ذاتَ خالٍ وقصّتْه، وجاء هذا البيت بعد قصها للخال، فيما كانت الأبيات التي يذكر فيها الخال قبل قصّه، وقد نصّ بنفسه خبر القصّ:

فـإنْ كـانَ قَطْـعُ الخَـالِ لَمَّـا تَعَطْفَـتْ علـى غَيْرِهـا نَفْسِـي فقـد ظَلِـمَ الخَـالُ(٥٠)

وقد ذكرت د.عاتكة الخزرجي محققة الديوان أن فوزًا قصّتْ الخال مكايدةً للعباس، غير أنّ هذا البيتَ مع بيتٍ قبله وردا في بعض كُتب الأدب(٥١) مُرْفَقَيْنِ بقصةٍ مفادها أن جارية كانت عند هارون الرشيد ذات خال لم يُر أحسن منه، ثم بدا لها ميلُ الرشيد إلى غيرها فقرضت الخال بالمقراض، فشقّ ذلك على الرشيد وطلب من العباس أن ينشئ بيتين في هذا المعنى، فقال البيتين اللذَيْن غناهما إبراهيم الموصلي(٥٢) (ت ١٨٨هـ)، واسترضاها الرشيدُ بهما، وعلى هذا لا يكون لفوز صلةٌ بهذا البيت!

(٤٥) نفسه، ص ١٩.

(٤٦) نفسه، ص ٤٧.

(٤٧) نفسه، ص ٩٢.

(٤٨) نفسه، ص ٢٤.

(٤٩) نفسه، ص ١٦٩

(٥٠) ابن الأحنف، ديوان، ص ٢٢١

(٥١) انظر: المغربي، المرقصات والمطربات، ص ٤٥

(٥٢) من أشهر المغنّين في العصر العباسي، غنى للمهدي وهارون الرشيد والمأمون، وتوفي في خلافة الأخير، وخلفه ابنه إسحاق في الغناء.

ومن الأسماء التي جعلها العباس علمًا على فوز في بعض المواقف اسمُ (الرباب)، وقد ورد في موضع وحيد في الديوان، والرباب اسمٌ للسحاب الأبيض الذي يكون دون السحاب المرتفع في السماء، فيظهر كأنّه معلّقٌ بين الأرض والسحاب المرتفع، وهو ما يناسب سياق القصيدة التي نعتها فيها بهذا الاسم:

تِلْـكَ الرَّبـابُ -ولا إعْـلانَ- لَـوْ عَلِمَـتْ ... مـا بِـي لقـدْ هَاجَهـا شَـوْقٌ وتَـذْكَارُ

طـالَ الوقـوفُ ببـابِ الـدَّارِ فِـي عِلَـلٍ ... حَتَّـى كَـأنِّي لِبَـابِ الـدَّارِ مِسْـمَارُ

قـالوا نَسِـيرُ فـلا سـاروا ولا وَقَفَـوا ... ولا اسْـتَقَلّتْ بِهِـمْ لِلْبَـيْنِ أكْـوَارُ

مَـا عِنْـدَهُمْ فَـرَجٌ فِـي قَـرْبِ دَارِهِـمُ ... ولا لَنَـا مِـنْهُمُ فِـي البُعْـدِ أخْبـارُ[٥٣]

وهذه الحال المعلقة من وقوفه بباب الدار دون القدرة على اللقاء بها، وضبابيةِ موقفها من البقاء أو الرحيل، وانتفاء ظفره بشيء منها في القرب وفي البُعد على السواء، كلها تُناسب استعماله لاسم (الرباب) الذي يناسب موقفه المعلّق هذا بين اللقاء وعدمه.

وقد ألحّ على معنى الكتمان في الجملة الاعتراضية (ولا إعلان)، والعباس يستعمل الاعتراض كثيرًا في شعره، وجاء استعماله هنا في معنى متحقّقٍ قبلُ من طريق استعماله اسمًا مستعارًا لمحبوبته (الرباب)، وهذا قد يدلّ على أنّ الكتمان يظل همًّا يشغله حتى في موقف متذبذب مُعَلَّقٍ كهذا الذي ذكره في هذه الأبيات.

كما أن العباس يُكثر من الكناية عن محبوبته بجملة موصولة، وقد وردت من هذا الطريق ثمانيَ مراتٍ، ويُركِّبُ صلةَ الموصول مما يُناسب السياق، نحو قوله:

- **إنّ التـي أرسـلتْكِ شـافِعَةً ... تُسـيءُ ظَنّـا وتَقْبَـلُ الكَـذِبَا**[٥٤]
- **إنّ التـي سَـكَنَتْ فُـؤادَكَ كاعِـبٌ ... حـوراءُ تَسْـتُرُ وَجْهَهَـا بِـذِرَاعِها**[٥٥]
- **أعنـي التـي مَـنْ أراهُ اللهُ صُـورَتَها ... نَـالَ الخُلُـودَ فلـمْ يَهْـرَمْ ولـم يَشِـبِ**[٥٦]
- **قُـلْ لِلَّتـي وَصَـفَتْ مَحَبَّتَهـا ... لِلْمُسْـتَهَامِ بِـذِكْرِهَا الصَّـبِّ**[٥٧]

فكل جملة موصولة جيء بها مناسبةً للسياق الواردة فيه، ففي الشاهد الأول تناسب صلة الموصول (أرسلتك شافعة) سياق التعجب من توسّطها بشافع يطلب رضا العباس عنها وهي المذنبة بالوقوع في سوء الظن به.

والشواهد الثلاثة الأخرى تأتي صلة الموصول فيها (سكنتْ فؤادك كاعبٌ، من أراه الله صورتها نال الخلود...، وصفت محبتها للمستهام...) متناسبةً مع مقام التغزّل الواردة فيه.

---

(٥٣) ابن الأحنف، ديوان، ص ١١٠.

(٥٤) ابن الأحنف، ديوان، ص ٢٤.

(٥٥) نفسه، ص ١٧٧.

(٥٦) نفسه، ص ٤٣.

(٥٧) نفسه، ص ٤٩.

ومن الأسماء المتكررة (خود، أو الخود)، وأكثر سياقاتها سياق وصفها الظاهر، وهو ما يتناسب مع معنى الاسم: الحسنة الخَلق، الناعمة! وهو يتكرر في ديوانه سبع مرات، منها:

- **خَـــــوْدٌ كـــــأنَّ بِرِيقِهَـــــا مِسْـــكًا يَفُـــوحُ لَـــدَى كَرَاهـــا(٥٨)**
- **خَـوْدٌ تُشـيرُ بِـرَخْصٍ حَـفَّ مِعْصَـمَهُ دُرٌّ، وســـاعِدُهُ لِلْوَجْـــهِ سَـــتَّارُ(٥٩)**
- **مِـــنْ حُـــبِّ خَـــوْدٍ طَفْلَـــةٍ كَالشَّـــمْسِ حُسْـــنًا حِـــينَ تُشْـــرِقْ(٦٠)**

وهذه الطريقة من المناسبة بين اسم الحبيبة والسياق الوارد فيه طريقة مألوفة، عرفها العرب منذ جاهليتهم، وهو استعمالٌ أمْثل للثراء الدلالي الذي تنماز به العربية في العبارة عن ذاتية الشاعر بواسطة اختياره للاسم الذي يُحسن تصوير موقفه وشعوره في سياقٍ ما![٦١]

وثمة طرائق أخرى سلكها العباسُ للكِتْمان منها: عَقْدُ حوارٍ بينهما بتراسُلِ العيون! كما لو كانا في موطنٍ اجتمع فيه جملةٌ من الناس؛ مما اضطرهما إلى هذا النوع من الحوار الذي قصّ خبره في قوله:

تُحَـدِّثُ عَنّـا فـي الوُجـوهِ عُيُونُنَـا ونحْـــنُ سُـــكُوتٌ والهَـــوَى يَـــتَكَلّمُ

وَنَغْضَـــبُ أَحْيَانًـــا وَنَرْضَـــى بِطَرْفِنَـــا وَذَلِـــكَ فِيمَـــا بَيْنَنَـــا لَـــيْسَ يُعْلَـــمُ

إذا مـــا اتَّقَيْنـــا رَمْقَـــةَ مِـــنْ مُبَلِّـــغٍ فأعْيُنُنَـــا عَنّـــا تُجِيـــبُ وَتَفْهَـــمُ(٦٢)

فقد اتخذا عيونهما بدلا عن شفاههما في المحادثة، بل إنّ الأمر لَيبلغ بهما أنّهما يختلفان ويعودان إلى ما كانا عليه من الرضا بوساطة العيون فحسب!

ومن مسالك الكتمان عند العباس: الهَجْر، وهو هجرٌ داعيه اتقاءُ مقالة الوشاة ومن شاكلهم، كما أنّه هجرٌ مؤقّت، فلا يدوم إلا بدوام الخوف من الرِّقْبَة، ويعودان إلى الوصال في حال الأمْن، وقد نصّ العباس على هذا السلوك منهما:

إذَا خِفْنَـــا بُغَـــاةَ النّـــاسِ كُنّـــا عَلَـــى حَـــالِ الصَّـــرِيمَةِ والتَّقَـــالِي

وإنْ غَفَلَـــتْ عُيُـــونُهُمُ رَجَعْنَـــا لِأَحْسَـــنِ مَـــا يكـــونُ مِـــنَ الوِصَـــالِ(٦٣)

والظنّ أنّ ترك الوصال واللقاء مما يكون كثيرًا بينهما لأجل الإبقاء على خفاء أمر الحب الذي يجمعهما، فقد تكرر غير مرةٍ تسبيبُهُ للهجر، فإذا ما عُرف أن الهجر يكون بينهما كثيرًا على سبيل المغاضبةً فإنّ كثرةَ النص على العلة من الهجر الحاصل -في غير حال الغضب- مُتوقّعٌ ومطلوب، فمن ذلك قوله:

---

(٥٨) نفسه، ص ٢٨٧.

(٥٩) نفسه، ص ١٠٨.

(٦٠) ابن الأحنف، ديوان، ص ١٩٠.

(٦١) انظر: الحراحشة، الاتّساع: أسماء النساء في الشعر الجاهلي (هريرة أنموذجًا)، ص ٧٦٩ وما بعدها.

(٦٢) ابن الأحنف، ديوان، ص ٢٤٣.

(٦٣) نفسه، ص ٢١٦.

اللهُ يَعْلَـــمُ مـــا أرَدْتُ بِهَجْـــرِكُمْ إلّا مُصـــانَعَةَ العَـــدُوِّ الكَاشِـــحِ

وَعَلِمْـــتُ أنَّ تَبَاعُـــدِي وَتَسَـــتُّري أوْفَـــى لِوَصْـــلِكِ مِـــنْ دُنُـــوٍّ فَاضِـــحِ(٦٤)

ومنه هجرُ الزيارة:

يَـــا نَظْـــرَةً كانـــتْ عَلَيْـــكَ بَلِيَّـــةً إنِّـــي إخالُـــكَ بَعْـــدَها لا تَسْـــلَمُ

إنِّـــي لأجْتَنِـــبُ الزِّيَـــارَةَ جَاهِـــدًا والشَّـــوْقُ بَـــيْنَ جَـــوَانِحِي يَتَضَـــرَّمُ(٦٥)

ويكثر في هذا النوع من الهجر (أي الهجر لأجل اتقاء الوشاة والرقباء، لا هجر المغاضبة)-إلى جانب استعماله للتعليل لوقوع الهجر- استعمال المؤكدات من قسم وغيره: (الله يعلم، لعمري، إني، لام القسم ...إلخ)، وهذا جارٍ على ما يَرِدُ عنه في باب الحديث عن الكتمان جملة.

وقد يكون الهجرُ بإظهار الصدود، وترك عناية كلٍّ منهما بصاحبه حال اللقاء في مجمع من الناس:

ســـــأهْجُرُ إلْفِـــــي وهِجْرَانُنَـــــا -إذا مـــا التَقَيْنَـــا- صُـــدُودُ الخُـــدُودِ

كِلانـــــا مُحِـــــبٌّ ولكِنَّنَـــــا نُـــدَافِعُ عَـــنْ حُبِّنَـــا بِالصُّـــدُودِ

فَأمَّـــا الضَّـــمِيرَانِ مِنّـــا فَفِـــي عَـــذَابٍ طَوِيـــلٍ وَوَجْـــدٍ شَـــدِيدِ

فَـــوَيْحَ مُحِبَّـــيْنِ لَـــمْ يَلْقَيَـــا سُـــرورًا سِـــوى نَظَـــرٍ مِـــنْ بَعِيـــدِ(٦٦)

ومن الهجر لأجل -اتقاء انكشاف الأمر بينهما-: هجرُ المكاتبة، وهو معنى يتردد في ديوانه مُعلِّلًا لوقوعه، من مثل قوله:

لَعَمْـــرِيَ مَـــا حَبْسِـــي كِتـــابِيَ عَـــنْكُمُ لِهَجْـــرٍ، ولكـــنْ كَثْـــرَةُ الرُّسْـــلِ تَفْضَـــحُ

وإنْ كُنـــتُ لـــمْ أكْتُـــبْ إلـــيكُمْ فإنّمـــا فَـــؤادي إلـــيكمْ حِـــينَ أمســـي وأصْـــبِحُ(٦٧)

ومِنْ أساليب الكتمان التي طرقها العباس: التعريضُ بِسواها في الحديث لئلا تُعرف، وادّعاء سلوانها أو حُبَّ غيرِها تضليلًا للسامع عنها، ومن ذلك قوله:

لَعَمْـــرِي لَـــئِنْ أمْسَـــى بِغَيْـــرِكِ ظَـــنّهُمْ لَـــذلِكَ أخْفَـــى لِلْوِصَـــالِ وَأسْـــتَرُ

تَظَـــنُّ بِـــيَ النّـــاسُ الظّنُـــونَ وأنْـــتُمُ هَـــوَايَ الـــذي أخْفِـــي إلـــى يَـــوْمِ أقْبَـــرُ

فَـــلَا تَحْمِلِـــي ذَنْبًـــا عَلَـــيَّ مَقَـــالَهُمْ ولا تَـــذْكُرِي مِـــنْ ذاكَ مَـــا لَـــيْسَ يُـــذْكَرُ(٦٨)

ويَنُصُّ على تعريضه بغيرها عامدًا فيقول:

---

(٦٤) ابن الأحنف، ديوان، ص ٧٤.

(٦٥) نفسه، ص ٢٣٩.

(٦٦) نفسه، ص ٩٩.

(٦٧) نفسه، ص ٧٣.

(٦٨) ابن الأحنف، ديوان، ص ١٢٤.

إنّمـــا أذْكُـــرُ الجِـــوَارَ إذا شَـــ م ـــطَوا لِيَخْفَـى الهَـوَى عَلَـى العَالَمِينـا

وإذا الـــدارُ مَـــرّةً جَمَعَتْنـــا قلـتُ: واحَسْـرَتَا علـى الظاعِنينـا(٦٩)

فهي مخاتَلَـةٌ منه بغرض تضليل المتربصين، فتذهب ظنونهم بعيدًا عنها، وهذا ما يريده العباس.

بل إنّه قد يَنُصُّ على اسم واحدةٍ بعينها لتنصرف نحوها الأبصار، فيقول:

وإذَا سُـــئِلْتُ عَـــنِ التـــي شَـــغَفَتْ قَلْبِـــي وَكَلّـــتُهُمُ إلـــى أُخْـــرَى

مَـــا زِلْـــتُ أَكْـــذِبُهُمْ وأَكْـــتُمُهُمْ حَتَّـــى شُـــهِرْتُ بِغَيْـــرِ مَـــنْ أَهْـــوَى(٧٠)

وقد ادّعى بعضهم اكتشاف هوية محبوبته، فما كان من العباس إلا أن اضطُرَّ إلى إنكار حُبه لها جملةً:

سَـــمَّاكِ لِـــي قَـــوْمٌ وقـــالوا إنّهـــا لَهِـــيَ التـــي تَشْـــقَى بِهـــا وتُكابِـــدُ

فَجَحَـــدْتُهُم لِيَكـــونَ غيـــرَكِ ظَـــنّهُمْ إنِّـــي لَيُعْجِبُنِـــي المُحِـــبُّ الجاحِـــدُ(٧١)

كما أنّه في غير موضعٍ يزعم أنه قد سلاها، فأثبت حُبها من جهة، لكنه نفى بقاءه:

كَـــذَبْتُ علـــى نفســـي فَحَـــدَّثْتُ أَنّنِـــي سَـــلَوْتُ لِكَيْمـــا يُنْكِـــرُوا حـــين أصْـــدُقُ

ومَـــا عَـــنْ قِلًـــى مِنِّـــي ولا عَـــنْ مَلَالَـــةٍ ولكنّنِـــي أَبْقِـــي عَلَيْـــكِ وأَشْـــفِقُ

وَمَـــا الهَجْـــرُ إلّا جُنّـــةً لِـــي لَبِسْـــتُهَا أَقِيـــكِ بِهَـــا مِمَّـــا نَخَـــافُ ونَفْـــرَقُ

عَطَفْـــتُ عَلَـــى أَسْـــرَارِكُمْ فَكَسَـــوْتُها قَمِيصًـــا مِـــنَ الكِتْمـــانِ لا يَتَمَـــزَّقُ(٧٢)

وفي عبارته عن الكتمان بقوله (قميصًا من الكتمان لا يتمزّق) دليلٌ على أنّ ثمة أياديَ تمتدّ لهتك هذا السِّتر لمعرفة ما وراءه من خبره مع فوز، وأنّه يجاهد في الحفاظ عليه سليمًا من التمزّق وقايةً لها مما قد يعرض لها من معرفة اسمها على الحقيقة.

ولعل الحامل له على الإثبات ابتداءً انكشافَ أمره مع فوز من أي طريق، فلم يجد بُدًّا من الإقرار ثم ادعاء السلوان، ويرجِّح هذا الظنّ نَصَّه على خيانة من استأمنهم على هذا السر:

وَمَـــا مَـــرَرْتُ بِقَـــوْمٍ فـــي مَجَالِسِـــهِمْ إلّا سَـــمِعْتُهُمُ فينـــا يَخُوضُـــونا

وَقَـــدْ أَمِنّـــا علـــى أسْـــرارِنا نَفَـــرًا كـــانوا كـــأولادِ يعقـــوبٍ يخونونـــا(٧٣)

واختيارُهُ لأولاد يعقوب ليضرب بهم المثل في الخيانة -وهم الذين خانوا أباهم حين استأمنهم على أخيهم يوسف فغدروا به- قد يُفْهَم منه أنّ الذين استأمنهم العباس وفوز على السر كانوا من أهل

(٦٩) نفسه، ص ٢٦٩.

(٧٠) نفسه، ص ٣.

(٧١) نفسه، ص ٨١.

(٧٢) ابن الأحنف، ديوان، ص ١٩٥.

(٧٣) نفسه، ص ٢٥٥.

بيته أو بيتها، ويعضّد هذا ما مضى من إلحاحه على كتمانه وحفظه سرها عن كل أحد حتى عن الصاحب المستأمن.

وهذه الخيانة هي ما حمله -فيما يظهر- على الاعتراف بحبه لفوز بعد تعيينها، ومن ثَمّ نفي بقاء هذا الحب.

ومن طرائق الكتمان الحرصُ على اصطفاء الرسول الذي يجري بينهما بالمكاتبات والأخبار، لِيَأْمَنَاهُ على ما يكلفانه به من حمل الرسائل، وهذا يتبين من قول العباس:

إنَّ الرَّسُــولَ الــذي كانــتْ سَــرَائِرُنا مَدْفُونَــةَ عِنْــدَهُ -يــا فــوزُ- قــدْ ذَهَبــا

فاسْــتَخْلِفِي لِــي رَسُــولًا ذَا مُحَافَظَــةٍ لا خَيْــرَ فِيــهِ إذَا مَــا خَــانَ أوْ كَــذَبَا(٧٤)

فهو يجعل للرسول شروطًا هي أن يحفظ الأسرار، ولا يخون، ولا يكذب، وهذه الشروط ضرورة لتحقُّقِ الكتمانِ الذي من أجله طُلِبَ هذا الرسول.

بل إنّه قد عُرف بين الناس رسولُ العباس، فخشي أن يذهب إلى فوز فينكشف السر، فسألها أن تجعل من جهتها رسولًا يلقى رسوله:

إنّهُــــمْ إنْ رَأوْا لَــــدَيْكِ رَسُــــولِي حَقّقُــــوا مَــــا رأوا وكــــانَ دلــــيلا

فــانْظَرِي مَــنْ رَأيْــتِ لِلسِّــرِّ أهْــلًا فاجْعَلِيــــهِ إلــــى رَسُــــولي رَسُــــولا

فَــإذا مَــا تَوَلّيَــا الأمْــرَ عَنّــا لــمْ يَجِــدْ ظَــنّهُمْ إلَيْنــا سَــبِيلا(٧٥)

ولا ينسى أن يؤكد أن يكون من تنتقيه من جهتها (للسرّ أهلا)، والمقصود من ذلك: (لم يجد ظنّهم إلينا سبيلا).

٤- ورود ما يُنافي حصولَ الكتمان، أو إخفاقِهِ في دوام تحقيقه:

والكتمان الوارد في شعر العباس يأتي في أمرين:

الأول كتمان الهوى جُملةً عن فوزٍ أو عن سواها من الناس، فيطوي ما يُكن ضميره من حبٍ في العموم عن الناس جميعًا، وهو ما طلبه العباس أول أمره مع فوز لكنه لم يظفر به، وانكشف للناس بلواه بالوقوع في الهوى، وظهر عليه ما يظهر على العشاق من علامات لا تخفى على ذوي الفِطَن، غير أنّ ابن داود الظاهري يَعُدّ مخالفةَ فضيلةِ كتمانِ الهوى في هذا المقام -من غير الإفصاح عن اسم الحبيبة ونسبها- مما يعين أشد العون على الإبقاء على الإلف، كونه علامة على تمكّن الشوق منه، وتملك الهوى له، وهذا ما أعجزه عن الكتمان، وهو ما يمكّن له في قلب محبوبته.(٧٦)

(٧٤) نفسه، ص ٤٤.

(٧٥) ابن الأحنف، ديوان، ص ٢٢٧.

(٧٦) انظر: ابن داود، الزهرة، ص ٤١٣.

وقد ذَكَرَ العباسُ مجاهدته -ليُخفي ما يُجِنّ من الهوى- في كثيرٍ من أشعاره، منها قوله:

لَـــنْ يَسْـــتَطيعَ الفَتَـــى كِتْمـــانَ خُلّتِـــهِ حَتَّـــى يُحَـــدِّثَ عَنْهَـــا أيْنَمَـــا قَعَـــدَا

قَـــدْ كُنْـــتُ أكْـــتُمُ مَـــا أَلْقَـــى وأسْـــتُرُهُ جَهْدي، فأزهَقَ شوقي الصَّبْرَ والجَلَدَا(٧٧)

أما الأمر الآخر فهو كتمان هوية المحبوبة، وإخفاء اسمها ونسبها، وهو ما ركب العباسُ في سبيله كلَّ وسيلة، وكابد لأجله مكابدةً شديدة، وفي هذا المعنى يقول:

يَـا مَـنْ يُسـائلُني عـنْ وَجْـدي لِأظْهِـرَهُ إنّ المُحِـــبَّ لَتَبْـــدو مِنْـــهُ أسْـــرارُ

فاسْـمَعْ مُنَـاقَلَتي وانْظُـرْ إلـى نَظَـري إنْ كـانَ مِنْـكَ لِمَـا فـي الصَّـدْرِ إنْكـارُ

أمّـا اسـمُها فهـو مَكْتُـومٌ فَلَـيْسَ لَـهُ مِنِّـــي إليْـــكَ بـــإذْنِ اللهِ إظْهـــارُ(٧٨)

والأخير منهما هو المقصود في هذا الحديث، وهو المراد من نصِّ العباس -في كثير من أشعاره- على إخفاقه في الحفاظ على دوام الكتمان، ولعلّ مِمَّا يوافق هذا قولُهُ:

عَلَـى أَنّـهُ يَبْـدو مِـرَارًا مـن الفَتَـى طَوَالِـــعُ إنْ هَـــاجَ الفـــؤادَ التَـــذَكُّرُ

إذَا غَلَـــبَ الصَّـــبْرَ البُكـــاءُ وهُيِّجَـــتْ تَبَارِيحُـــهُ فالصَّـــبُّ بِالـــذِكْرِ يُعْـــذَرُ(٧٩)

فالذكر المقصود ليس ذكر فوز أو كشف أمرها، فهذا لا يكون عقلًا، بل هو إظهار أمر الهوى ومكابدته دون تعيين المحبوبة.

وهو في مواضع كثيرة ينصّ على هذا النوع من المكابدة الذي يتعذّر معه كتمان الهوى لظهور علاماته على العاشق الصبّ:

مَـنْ ذَا يُطِيـقُ كَمَـا نُطيـقُ مِـنَ الهَـوَى! غَلِـــبَ العَـــزَاءُ وبَاحَـــتِ الأسْـــرارُ

وإذا نَظَـــرْتَ إلـــى المُحِـــبِّ عَرَفْتَـــهُ وَبَـــدَتْ عليـــهِ مِـــنَ الهَـــوَى آثَـــارُ(٨٠)

وآثار الهوى سببٌ في تعذّر كتمانه، وقد حكى ابنُ حزم خبر بعض العاشقين الذي كان يجحد وقوعه في الحب أول الأمر، ثم لما تمكّن الحب من قلبه، وعظمت آثاره ما استطاع إلى إخفائه سبيلا فأقرّ بذلك على مضض.(٨١)

ومِنْ أظْهَرِ أماراتِ الحب التي يَعْسُرُ معها كتمانُ أمره: نحول الجسد، وما يبدو على صفحات الوجه، وتقلّب العينين إلى حيث يكون المحبوب، وتسكاب الدموع، والأخيرة ألحّ العباس على فعلها الدائم في فَضْحِ ما يجده من تباريح الشوق:

---

(٧٧) ابن الأحنف، ديوان، ص ٨٣.

(٧٨) ابن الأحنف، ديوان، ص ١٠٩.

(٧٩) نفسه، ص ١٣٨.

(٨٠) نفسه، ص ١١٧.

(٨١) انظر: ابن حزم، طوق الحمامة، ص ٨٤، ٨٥.

- **وَأسْكُتُ كَـيْ يَخْفى الـذي بـي مِـنَ الهَـوَى فَتَشْـكو ُإلـى النّـاسِ العِظَـامُ النّوَاحِـلُ**

وأكْـتُمُ جَهْـدِي مَـا أَجِـنُّ مِـنَ الهَـوَى فَتَنْشُـرُ مَـا أَخْفِـي الـدُّمُوعُ الهَوَامِـلُ[٨٢]

- **لا جَـزَى اللهُ دَمْـعَ عَيْنَـيَّ خَيْـرًا وَجَـزَى اللهُ كُـلَّ خَيْـرٍ لِسـانِي**

نَـمَّ دَمْعـي فَلـيْسَ يَكْـتُمُ شَـيْئًا ووَجـدْتُ اللسـانَ ذا كِتْمـانِ

كُنْـتُ مِثْـلَ الكِتـابِ أخْفـاهُ طَـيٌّ م فاسْـتَدَلّوا عَلَيْـهِ بِـالعُنْوَانِ[٨٣]

واستعمالُهُ فِعْلَ (النّمِّ) -للعبارة عمّا يفضي إليه سيلان الدموع أمام الناس من تفسيرهم لها بالوقوع في الهوى وافتضاح أمره عندهم- فيه إجادةٌ في الانتقاء، فلم يستعمل (نقل) أو (أخبر) أو (حدث)، وكلها كانت ستفضي إلى محض نقل الخبر، لكن النميمة تزيد على معنى النقل وحده معنى نقل الخبر على وجه الإفساد، فكأنّ هذه الدموع وهي تنقل إلى الناس -بلسان حالها- خَبَرَ وقوع صاحبها في شَرَكِ الهوى تُفسد رغبته في بقاء أمر الهوى سِرًّا، أو قد تجعل الناس يخلعون عليه شيئًا من سِماتَ أهلِ المجون فيسقط قَدْرُهُ عندهم!

والعباس على كل حال يُقرر استحالة كتمان أمر الهوى في الجملة وإن اجتهد المُحِبُّ في ذلك:

أمَّـا الهَـوَى فَهْـوَ شَـيْءٌ لا خَفَـاءَ بِـهِ شَـتَّانَ بَـيْنَ سَـبِيلِ الغَـيِّ والرَّشَـدِ

إنّ المُحِبِّـينَ قَـوْمٌ بَـيْنَ أعْيُـنِهِمْ وَسْـمٌ مِـنَ الحُـبِّ لا يَخْفَـى عَلَـى أَحَـدِ[٨٤]

أمّا كتمان حقيقة المحبوبة فهو شريعة مضى عليها حتى انقضت الحياة بهما، وهي المقصودة في هذا الدرس.

وقد ذكر د.زكي مبارك أن "أظْهَرَ خصيصة من خصائص العباس هي الكتمان... حتى صار عنوانًا عليه، ولا تعرف العربية شاعرًا أُولِعَ بِهذا المعنى على نحو ما أولع به هذا العاشق، وقد افْتَنَّ فيه افتنانًا يشهد بأنه كان غايةً في الذكاء..."[٨٥]، كما ذكر بعض المؤرخين أنّ سبب تقديم المأمون لجنازة العباس في الصلاة على جنازَتَيْ إبراهيم الموصلي وأبي العتاهية -وقد مات ثلاثتهم في يوم واحد- لِمَا كان من كتمانه حقيقة محبوبته عن الناس![٨٦]

أما بعد فهذا ما تيسّر بَسْطُهُ من القول في (الكتمان في شعر العباس بن الأحنف)، وقد اُستفتِح البحث بمدخلٍ حُدّدت فيه مدخلاته؛ لتتبيّن طبيعةُ الأرض التي يقف عليها والمكونات الأولى التي يتشكل منها، وقد تبيّن أنّ الكتمان يُعدُّ مبحثًا من مباحث الفلسفة المثالية باعتبار عنايتها بالجانب

(٨٢) ابن الأحنف، ديوان، ص ٢٢٤.

(٨٣) نفسه، ص ٢٨٢.

(٨٤) نفسه، ص ٨٨.

(٨٥) مبارك، العشاق الثلاثة، ص ٨٢.

(٨٦) البغدادي، تاريخ بغداد، ٨/١٤

الأخلاقي في السلوك والفكر، وهو جانبٌ يفرض تَرْكَ الإضرار بالآخرين أو اقترافِ ما يسوؤهم أو يمسّ ذِكْرَهُم بين الناس، وقد ظهرت صُوَرُ الكتمان في شعر العباس متفقةً مع هذا، فإنْ لم يكن يملك إخفاء أمر الهوى في الجملة؛ لتعذِّر ذلك بعد أن تمكّن من قلبه وبَدَا على ظاهره، فإنّه اجتهد في إخفاء اسمها وكَابَدَ القلق والحرص والحرمان وكلَّ ما يترتّب على تحقيق هذا الكتمان، وقد أفلح في ذلك، فلم يُعرف اسمُها ولا هويّتها على وجه الجزم إلى هذا الزمان.

المصـــــــــــــادر:

- ابن الأحنف، العباس، ديوان، ت: عاتكة الخزرجي، دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ط، ١٩٥٤م.

المـــــــــــــراجع:

- الأصفهاني، الراغب، محاضرات الأدباء، ت: عمر الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.
- أفلاطون، المحاورات الكاملة، تر: شوقي داود تمراز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، د.ط، ١٩٩٤م.
- البغدادي، الخطيب أبو بكر، تاريخ بغداد، ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
- الحراحشة، أحمد محمد، الاتّساع: أسماء النساء في الشعر الجاهلي (هريرة أنموذجًا)، مجلة دراسات: العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد ٣٩، العدد ٣، عمادة البحث العلمي بالجامعة الأردنية، عمّان، ٢٠١٢م.
- ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ٢٠٠٤م.
- الخزرجي، عاتكة، الشخصية التاريخية لفوز صاحبة العباس بن الأحنف، مجلة الرسالة/ العدد (١٠٣٥)، مصر، ١٩٦٣م.
- ابن داود، الزهرة، ت: إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء/الأردن، ط٢، ١٩٨٥م.
- سعد الدين، ليلى حسن، العباس بن الأحنف: دراسة مقارنة، مؤسسة الخافقين، دمشق، ط١، ١٩٨٢م.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبدالكريم، الملل والنحل، ت: أحمد فهمي محمد، مطبعة حجازي، القاهرة، د.ط، ١٩٤٨م.
- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط٨، د.ت.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، ت: عبدالسلام هارون، دار الفكر، بيروت، د.ط، ١٩٧٩م.
- مبارك، زكي، العشاق الثلاثة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
- ابن معمر، جميل، ديوان، ت:حسين النصار، دار الطباعة، القاهرة، د.ت.
- المغربي، موسى بن سعيد، المرقصات والمطربات، جمعية المعارف، مصر، ١٢٨٦هـ.
- هيجل، المدخل إلى علم الجمال، تر: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.